بعث جديد للثقافة الاسلامية

للاستاذ محمد المكى الناصرى
عضو البعثة المغربية

للغرب قضية مرفوعة ضد الشرق ، وللشرق الاسلامى ثقافة عظيمة هي موضوع التهمة فى هذه القضية ، ونحن واثقون أنه لو تقدم بثقافته الي الغرب وأحسن فى تقديمها ، لدفع اتهامه، وكسب احترامه ، ولكن إذا كان اعتبار هذه التهمة باطلة ، من الوجهة النظرية البحتة ، أمراً سهلا لا يكلف غير قليل من الجدل والكلام ، فان اعتبارها باطلة من الوجهة العملية ، يكلف أبناء الشرق من الجهود المحترمة ، والأعمال المنظمة مالا تستطيعه الافراد ، وإنما تتوافر عليه همم الجماعات المختلفة ، وتشترك فيه إرادات الامم المتعددة ، ولعل تهمة الغرب من هذه الوجهة ستظل قائمة كما كانت ، حتى يكشف الشرقيون عن جوانب ثقافتهم ، ويعرضوا على الانظار جميع خصائصها ومزاياها ، وحتى يجعلوها حديث الاوساط المتمدنة والهيئات العلمية فى العالم من أقصاه إلى أقصاه ، ولا أظن أننا سنفعل فى يوم من الايام إلي هذا الغرض السامي العظيم مالم تخرج مصادر هذه الثقافة كلها من مجاهلها فتصبح فى متناول جميع الباحثين ، ومالم نبعث ثقافتنا بعثاً جديداً على أيدى الكتاب والمدرسين ، فنلقنها للعامة على أعمدة الصحافة ، ونلقنها للخاصة من فوق منابر الجامعات ، وأرى أن أهم الوسائل التى تساعدنا على بلوغ هذه الغاية تنحصر فى ثلاثة أمور : (١) نشر مصادر الثقافة الاسلامية ، (٢) نقدها والبحث فيها (٣) دراستها فى الجامعات الشرقية ، واعتبارها مادة أساسية فى تعليم الشرقيين .

(١) أما نشر مصادر الثقافة الاسلامية فهو عمل كبير ، يعوزه المال الكثير ، ويحتاج إلى تأليف شركات للطبع على هذا الاساس ، ونحن لسنا بغافلين عن الجهود التى تبذلها « دار الكتب المصرية » لنشر شيء من هذه المصادر ، وإنما الذى نلاحظه أنها تقصر عنايتها فى الغالب على نشر المصادر الأدبية ، بينما الواجب أن توزع عنايتها بالتساوى على جميع فروع الثقافة الاسلامية ، كما أننا نعلم أن هنالك « لجنة محترمة للتأليف والترجمة والنشر » قدمت لجمهور القراء مؤلفات قيمة ، ومترجمات نافعة ، ولكنها إلى الآن فيما أعلم لم تقم بنشر مصدر محترم ، من مصادر الثقافة الاسلامية ، ولا يزال أملنا قويا فى عنايتها بهذا الواجب ، ولا نغفل هنا أن

المستشرقين بذلوا جهوداً حسنة ، ونشاطاً عظيماً فى هذه السبيل فواجب أن نستفيد من هذه الجهود بالطريقة التى ترضينا ، ولا مانع عندنا من أن نقدر نشاطهم أحسن تقدير ، بل نحن نغبطهم على عناية حكوماتهم بتحقيق أغراضهم وإجابة رغباتهم : وأرى أنه لو قامت هيئة محترمة من بين الشرقيين ، وبحثت عن جميع المصادر الجديرة بالنشر والطبع ، لاحياء الثقافة الاسلامية ، وقدمت بذلك رجاء إلى ملوك الشرق الذين ورثوا عروش العباسيين والفاطميين والأندلسيين ، ترجوهم أن يتبرع كل منهم لطبع هذه المصادر بما تسمح به أريحيته ، ويرتضيه كرمه لتقدم ملوك الشرق أجمعون إلى هذه المأثرة برحابة صدر وسماحة نفس ، ولقلدهم فى ذلك السراة الشرقيون من أمراء وزعماء ، ولرأيت مكاتب الباحثين قد امتلأت بمصادر البحث وأسس الاحياء . وتستطيع هذه الهيئة وقتئذ تأسيس « بيت الحكمة » من جديد . وتكون نفقاته مشتركة بين الحكومات الشرقية وبين ملوك الشرق . فيقوم « بيت الحكمة » بعملية التصحيح والنشر ، كما كان يقوم من قبل بأعمال الترجمة والتأليف .

٢ — وأما الكتابة عن الثقافة الاسلامية والبحث فيها ، فنظرا إلى أن هذه الثقافة تراث مشترك بين شعوب إسلامية كثيرة ، أرى من الواجب على كل شعب ساهم في هذا التراث ، أن يقوم على العناية بسهمه قبل كل شيء ، وأن يجتهد لتحديد نصيبه الخاص من هذه الثقافة تحديداً تاماً ، فمصر مثلا يجتهد مفكروها وأهل العلم فيها أن يخرجوا لنا أبحاثا علمية ومؤلفات قيمة تكشف الستار عن مفاخر « مصر الاسلامية » فى التشريع أوفى الادب : أوفى التاريخ أو فى الطب ، أو فى الفلسفة . وغير ذلك من أنواع العلوم . و « المغرب الاسلامى » يجتهد أبناؤه فى عرض مفاخره الفكرية ، على جميع أبناء الشرق الآخرين ، وبهذا الأسلوب وشبهه من « توزيع العمل » يتمكن أبناء الشرق الاسلامى من إحياء ثقافتهم فى زمن غير طويل ، ويجب أن ينظر الى هذا الاقتراح ، على أنه وسيلة من وسائل تنظيم الجهود وتوزيع الواجبات لا أقل ولا أكثر ، وليس هذا دعوة منا الى استئثار كل شعب بمفاخره الخاصة ، والاقتصار على دراسة نصيبه الخاص ، فهذا ما لا نريده أبداً ، بل ولا يمكن أن يكون ، وإنما قصدنا حفز الهمم وإثارة العزائم ، حتى ينهض أعضاء العائلة الشرقية باحياء رجالها وبعث ثقافتهم بطريقة علمية مقبولة ، ونحن لا نجهل ما يلزم لهذه الابحاث من صبر طويل وجلد لا ينفد ، ونعرف تمام المعرفة أن الثقافة الاسلامية واسعة الجوانب ممتدة الاطراف وانها لاتزال كما تركها الاسلاف ، غير ممهدة التمهيد الكافى ، ولا منظمة التنظيم الواجب . وأن كثيراً من

مصادرها تختلف أساليبه عن أساليبنا ، ومناهج بحثه عن مناهجنا ، ولكن صعوبة العمل لا تقوم عقبة فى سبيل الواجب ، بل هى عندى أهم الاسباب التى تدفع الشرقيين الى التعاون جميعا على القيام بهذه المهمة الكبرى و « يد الله مع الجماعة »

٣ — وأما إحياء الثقافة الاسلامية من جهة الدرس والتعليم ، فهو عمل عظيم يلقى على عاتق الجامعات القائمة الآن فى الشرق ، والتى ستقوم فيه من بعد ، فواجب على جامعات الشرق الاسلامى أن تضع على رأس دراساتها دراسة « تاريخ المجهودات الفكرية » التى بذلها المسلمون فى كل فرع من فروع المعرفة ، وأن تكون هذه الدراسة أساسية فى كل جامعة من هذه الجامعات . وأن تقام فيها ما بين حين وحين ، حفلات تذكارية لاحياء ذكرى طبيب أو كيماوى أو فيلسوف أو أديب أو زعيم من زعماء الاصلاح ، وهكذا ، حتى يعرف الشرقيون مقدار نبوغ آبائهم ، ويؤمنوا بأن لهم وجودا مستقلا فى عالم العقل والتفكير والاكتشاف .

ولاشك أنه من الغريب جداً أن توجد جامعة شرقية ، تدرس الطب والعلوم والفلسفة والآداب والتاريخ والقانون فيعرف طلبتها نظريات الغربيين فى هذه الفروع جميعها ، دون أن تجعلهم على بصيرة تامة بنظريات أجدادهم الشرقيين فى هذه العلوم نفسها ، ومن غير أن تكشف لهم عما وضعوه من أسس المدنية الحديثة والعلم الحديث ، حتى ليخيل الى بعض هؤلاء الطلبة أن المدة الطويلة التى كان فيها أسلافهم ، إنما هي فترة ملغاة من حساب الزمن ، وأنها فترة جهالة وعماء ، لا تدخل فى تاريخ الانسانية المتمدنة !! ولولا الجهل بالثقافة الاسلامية ، لما أخذ هذا الفريق باعتقاد باطل كهذا الاعتقاد ، فواجب ، فى كلية الطب ، أن تكون مادة تاريخ الطب فى الاسلام مثلا مادة اجبارية على الطلبة ، يعرفون منها مشاهير رجال الطب وابحاثهم واكتشافاتهم واصطلاحاتهم الفنية ، وما قدموه للطب من خدمات فى مختلف فروعه ، وفى كلية الآداب يجب أن يدرس الى جانب الدراسات الفلسفية الغربية المطولة ، تاريخ الفلسفة الاسلامية بجميع فروعها ومذاهبها واصطلاحاتها ، والى جانب الدراسات التاريخية الوصفية تاريخ المؤرخين الاسلاميين أنفسهم وعرض مناهجهم التاريخية المختلفة وما وضعوه من فلسفة فى التاريخ ، والى جانب الدراسات الجغرافية ، تاريخ الجغرافية فى الاسلام ، وشرح اكتشافات الجغرافيين المسلمين ، وما ابتكروه من خرائط وصححوه من أوضاع هى أسس مهمة فى هذا العلم ، وفى كلية الحقوق تدرس أصول القانون الاسلامى ، وفلسفة هذا القانون ، ووجوه الابتكار التى امتاز بها بعض « المجتهدين » عن بعض ، وما ناسب هذا من الموضوعات التى لها صلة بالقانون ، وفى كلية العلوم يدرس مثلا تاريخ الكيمياء

عند المسلمين مع مشاهير رجالها وأهل النبوغ والاكتشاف فيها، وبهذا نجدد ثقافتنا الاسلامية بطريقة عملية حية . ونمحها من البحث والدراسة والاحياء ماهى جديرة به بين الثقافات المختلفة ونخلق فى جميع أصناف المثقفين ، علميين وأدبيين . أطباء ومحامين ، روحاً قوية مؤمنة ، ترمى الى وصل جهود المستقبل بنتائج الماضى فى سلسلة واحدة ، و بلسان علمي واحد وتنظر الي الاسلاف ، نظرة عطف و إنصاف ، وربما كان هذا النوع من الدراسة هو الميزة الوحيدة للجامعات الشرقية عن أخواتها الغربيات . والجامعة المصرية — فيما أعلم — هى أول جامعة شرقية شرعت تتجه فى هذا الاتجاه ، وتسعى للوصول الى هذه الغاية ، وهى ماضية فى سيرها بهمة ونشاط ، ومن المنتظر بعد زمن غير طويل . أن يصبح للدراسات الشرقية مجال واسع فى كليات الجامعة . وأن توجه فيها عناية فائقة الى الثقافة الاسلامية ، بفضل أساتذتها الممتازين ، وادارتها الشرقية الحازمة .

ونحن إذا كنا حريصين على إحياء تاريخنا العلمى ، و بعث ثقافتنا الاسلامية ، فلسنا فى ذلك مبتدعين ولا مغربين ، ونظرة واحدة الى الجامعات الغربية تنسها ، ترينا كيف أن القوم لا تخلو أبحاثهم العلمية ، من فكرة وطنية مستورة وراءها . فلو ذهبت الى جامعة فرنسية مثلا لرأيت أن الاشخاص الذين ينالون حظهم من الدراسة والعناية ، والعرض القوى ، والذكر الحسن عند كل فرصة ، إنما هم فرنسيون لحماً ودماً وتفكيراً ، وأن أول مايقدمه الاستاذ الفرنسى لتلامذته فى كل فرع من فروع المعرفة ، إنما هو تعريفه بالجهود الفكرية الفرنسية ونبوغ العقل الفرنسى فى ذلك الموضوع ، ثم يعرج بعد ذلك على رجال الالمان أو الانجليز ، فيلقى عليهم نظرة بسيطة ويمر بهم مروراً خفيفاً ، وليس ذلك إلاخدمة للعقلية الفرنسية . وسعياً الى بث الايمان بها فى نفوس الشباب الفرنسيين ، ولو جلست الي شرقى متخرج فى الجامعات الانجليزية مثقف بثقافتها ، لوجدته لا يحسن الحديث عن المفكرين الفرنسيين ، ولا عن الثقافة الفرنسية ، لانه درس رجال الانجليز وحدهم ، وآمن بعبقرية العقل السكسونى دون سواه من العقول ، وتعلم ، فى جملة ما تعلم ، أن يجحد قيمة العقلية اللاتينية ، وليس هو فى ذلك إلا صورة طبق الاصل لاساتذته الانجليز ، هـذه حقيقة واقعية لا جدل فيهـا . يظهر أثرها فى الدراسات الجامعية كما يظهر أثرها فى نفس الكتب والمؤلفات ، فما بالنا نحن الشرقيين لا نقلد الجامعات الغربية فى روحها الوطنية التعليمية ، ونجعل جامعاتنا قائمة منذ البدء على هذا الاساس؟

وما بالنا لا نأخذ بمبدئها في إيمانها المطلق برجالها وفكرها ، قبل الايمان بغيرهم والعناية بمن سواهم ؟

نحن لا نريد أن نقاوم الثقافة الغربية في جامعاتنا . ونرفضها من دراساتنا رفضا باتا . وإنما نريد ، الى جانب دراستنا لثقافة الغرب . أن نبدأ في خدمة « تاريخنا العلمي كما نخدم تاريخنا القومي » . نريد أن يعرف أبناء الشرق الاسلامي آثار أجدادهم وجهودهم في سبيل المعرفة . وأن يقدروا عقليتهم وعبقريتهم في جميع العلوم ، نريد أن لا يشعر أبناء الشرق أنهم في ميدان المعرفة اقطاء ، ولا فقراء ، فقاقد الحسب والنسب حقير أمام الناس وأمام نفسه ، وأسير الفاقة ، غريق دائما في بحر شقائه وبؤسه . نريد أن يؤمن أبناء الشرق بأن العقلية الشرقية عقلية خصبة ، موفقة في الانتاج عندما تواتيها الظروف ، نريد أن يربط أبناء الشرق حلقات الحضارة الانسانية ، بعضها ببعض ، فيعرفوا أن الثقافة الغربية التي تسلمها اليوم ، إنما هي بضاعة آبائنا ردت الينا ، مضافاً اليها جهود الغربيين ونتائجهم . حتى نضيف اليها جهودنا ونتائجنا نحن أحفاد الشرقيين السابقين نريد أن نتعلم كيف نؤمن بنفاذ عقليتنا وحسن استعدادنا ، وأن تكون جامعات الشرق هي مبعث هذا الايمان ، وأن يكون مثلها الأعلى هو تخريج شباب يؤمنون بشرقيتهم وثقافتهم ، كما يؤمنون بوجودهم وشخصيتهم . حتى اذا ما هضمنا ثقافة الغرب ، وجمعنا ما فيها من عناصر صالحة ، الى ما في ثقافة آبائنا من عناصر خالدة ، أخرجنا للانسانية ثقافة شرقية جديدة ، تمد سلسلة التاريخ الفكري للشرق . وفي الوقت نفسه تمثل عقلية الشرق ، ومزاج الشرق ، وتسيطر عليها روح الشرق ، وعند ذلك يستطيع الشرق أن يدفع أخطر تهم الغرب ، وأن يسجل انتصاره النهائي في ميدان المعرفة ، كما سجل انتصاراته الاولى في ميدان السياسة . وتصبح حينئذ قيادة الانسانية ، بيد الشرق والشرقيين لا يجحدها جاحد ، ولا يعاندها معاند .

محمد المكي الناصري